

فلسفة العولمة وبيانها النظري، قراءة نقدية.

La Philosophie de la mondialisation et ses aspects théoriques. Lecture critique

الدكتور جيلالي بوبكر الرتبة: أستاذ محاضر قسم «ب» قسم العلوم الإنسانية والاجتماعية
كلية الآداب واللغات الأجنبية والعلوم الإنسانية. جامعة حسيبة بن بوعلي. الهاتف: 07.79.54.80.26 – boubakerdjilali@yahoo.fr

ملخص

تقوم إيديولوجيا العولمة على فلسفة اليمين الليبرالي، الذي تلتقي فيها فكرة نهاية التاريخ مع فكرة صدام الحضارات مع فكرة العصور الوسطى الجديدة، هدفها فرض النموذج الثقافي والسياسي والاقتصادي الأوربي الغربي والأمريكي على العالم أجمع، لكن العولمة بهذه الفلسفة وبممارساتها بلغت من التطرف الإيديولوجي الليبرالي ومن الاستبداد السياسي ومن الفساد الاقتصادي وغيره ما جعلها في قفص الاتهام.

Résumé

L'idéologie de la mondialisation sur la philosophie du droit-libérale, qui se réunit à l'idée de la fin de l'histoire avec l'idée du choc des civilisations avec l'idée de Moyen Age, la nouvelle, le but d'imposer la forme d'expression culturelle, politique et économique de l'Europe Occidentale et les Etats-Unis à travers le monde, mais la mondialisation, cette philosophie et les pratiques, a été de l'extrémisme idéologique, libéral et politique despotisme et la corruption économique, et l'autre de le faire dans le dock.

وسائل النقل والاتصال، الحالة الجديدة التي عرفتتها شعوب أوروبا الحديثة وكذلك شعوب الولايات المتحدة الأمريكية غيرت مجرى الحياة لدى شعوب العالم أجمع، بفعل انتقال منتجات الحضارة الغربية الفكرية والعلمية والتكنولوجية وغيرها إلى تلك الشعوب مع حرص الغرب على ذلك، وفي خضم النماء الاقتصادي والازدهار العلمي والتكنولوجي الغربي تنامت العديد من التحولات والتوجهات، وارتبطت بالوعي التاريخي وبظروفه الفكرية والمادية، ومن أبرز هذه التحولات توجه العولمة، الذي ارتبط بمفاهيم عدة قام عليها الفكر الغربي الحديث، مثل الحرية، العقلانية، الليبرالية، العلمية، العلمانية والحداثة والتحديث وغيرها، هذه المفاهيم في إطار الظروف التاريخية للغرب الحديث ومصالحة قامت بأدلجة العولمة حيث نشأت ونمت الظاهرة وأصبحت موضوعا يشغل الجميع، يشغل الغرب الذي يسعى إلى بسط سلطانه ونفوذه على العالم ودينه بقوته وحضارته المركزية ومن دون منافس، ويشغل الجهات الأخرى من العالم لحاجتها إلى التنمية وهي تفتقر إلى شروطها وتوجد في الأطراف خارج المركز. للعولمة فلسفتها وأيديولوجيتها ومنظورها للدفاع عنها وفرض هيمنتها، لكن العولمة بهذه الفلسفة وبممارساتها بلغت من التطرف الإيديولوجي الليبرالي ومن الاستبداد السياسي ومن الفساد الاقتصادي وغيره ما جعلها في قفص الاتهام.

المدخل:

❖ شهدت الإنسانية في بداية العصر الحديث تحولات بارزة في حياتها الفكرية والثقافية والعلمية، ومن ثم شملت باقي مجالات الحياة، فالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية عامة، وكانت تلك التحولات قد مسّت بقوة مجال العمل من حيث وسائله ومناهجه في التأثير على الطبيعة، وفي استخراج الطاقة وتحويلها من صورة غير نافعة إلى أخرى نافعة، من منطلق تسخير الطبيعة والطاقة لخدمة مصالح الإنسان وتحقيق أغراضه، وكان للانفجار العلمي والثورة الصناعية ومن وراء ذلك الإصلاح الديني والسياسي والتربوي الداعي إلى تحرير العقل والإنسان الفرد والمجتمع من كل ما يعيق السير نحو التقدم والازدهار الدور في تفجير التكنولوجيا، وهو ما تميّزت به الحياة عامة في الغرب الأوربي الحديث في شرق الأطلنطي وفي الولايات المتحدة الأمريكية في غربه.

❖ إن تخطي الغرب الأوربي الحديث أزمت العصور الوسطى وامتلاكه شروط النهضة وأسباب القوة والتقدم جعله يبنى حضارة قوية تقوم على الحرية والعلم والتكنولوجيا، هذه الحضارة مكنته من الوصول إلى درجة عالية من الازدهار الاقتصادي والرفاهية المادية، ذلك لكثرة الإنتاج الصناعي وتنوعه وازدهار حركة التسويق والتجارة، وكان ذلك بفعل تطور

1 - نهاية التاريخ محور فلسفة العولمة:

❖ يمثل كتاب «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» للمفكر الأمريكي الجنسية الياباني الأصل «فرنسيس فوكوياما» البيان النظري الإيديولوجي والسياسي للنظام العالمي الجديد ولتوجه العولمة في عصرنا، ينطوي على الخلفية النظرية الفلسفية التي تستند إليها إيديولوجيا العولمة وسياستها الليبرالية في الاقتصاد وفي ممارسة السلطة والحكم وفي الحياة الاجتماعية والفكرية والثقافية عامة، ولم يكن الكتاب ذا طابع علمي يهدف إلى تعميق البحث والدراسة الإنسانية والاجتماعية انطلاقاً من الواقع الإنساني الحضاري في العالم المعاصر بقدر ما كان بياناً نظرياً وخطاباً سياسياً وإيديولوجياً، الهدف منه تبرير توجه العولمة وتبرير فرض النظام العالمي الذي تسعى القوى المهيمنة إلى فرضه على العالم أجمع، ومادام اليسار الإيديولوجي كان ولازال يعارض الرأسمالية والديمقراطية حتى بعد انهيار المنظومة الاشتراكية وسقوط الاتحاد السوفييتي فإنه يعتبر الرأسمالية المتوحشة هي التي أنجبت العولمة وما ترتب عنها من تداعيات خطيرة على حياة الإنسان، هذا على الرغم من التحولات الكبرى السياسية والاقتصادية التي عرفتها الساحة الدولية، ومنها توجه دول المعسكر الشرقي الاشتراكية صوب الديمقراطية واقتصاد السوق والتعاظمي بإيجابية مع العولمة والنظام العالمي الجديد، في الاتجاه المعاكس ينطلق فوكوياما في صياغة رؤية سياسية وإيديولوجية ذات أبعاد فلسفية تحدد مشروعية مرتكزات المرحلة التاريخية الراهنة ومحدداتها وموجهاتها، المرحلة التي تتسم بسيطرة منتجات النهضة الأوروبية الحديثة والمتمثلة في التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل وفي الرأسمالية والديمقراطية وفيما أفرزته الحرب العالمية الأولى والثانية وفي عجز اليسار عن الاستمرار، إن رؤية فوكوياما تقوم على كون الديمقراطية الليبرالية هي «نهاية التاريخ» الذي يتحرك ليس بفعل العنف بل بفعل الرغبة الشديدة للاعتراف، هذا المحرك الأساسي للتاريخ يُعرف في الرؤية «بالتيموس»، ونجاح الديمقراطية الليبرالية يتم بالتقدم العلمي والتكنولوجي، وينبغي التأسيس للعلم والتكنولوجيا في المجتمع لبناء الديمقراطية الليبرالية في الحياة السياسية والاقتصادية فينهض المجتمع بمشاركة الشعوب الفعلية في القرار.

❖ يعيب فوكوياما على بعض البلدان غير الديمقراطية التي استوردت التكنولوجيا من دون إنتاجها قائلاً: «العيب الوحيد البارز هو منطقة الشرق الأوسط التي ليس فيها أيضاً ديمقراطيات مستقرة، بينما تحوي عدداً كبيراً من الدول حيث المداخل الفردية تصل إلى المستويات الأوروبية أو الآسيوية. ولكن النفط يفسر كل شيء: فالمداخل النفطية سمحت لدول مثل العربية السعودية والعراق وإيران والإمارات العربية المتحدة أن تحصل الدلائل الخارجية للحدثة - سيارات، فيديوهات، طائرات حربية من طراز ميراج أو فانتوم... دون أن تتلقى مجتمعاتها التحولات الاجتماعية الضرورية لبناء ونحت هذه الثورة»⁽¹⁾. الرؤية تعبر عن قراءة للتاريخ والمجتمع والفكر في الغرب الأوروبي وفي الولايات المتحدة الأمريكية، وهي

سلاح فكري فلسفي إيديولوجي إلى جانب القوة الاقتصادية والعسكرية للدفاع عن الوضع الذي تجسده العولمة وتعممه في العالم أجمع، من صور الدفاع عن العولمة ما جاء على لسان فوكوياما «كلما اقتربت الإنسانية من نهاية الألف الثالثة فإنه يُلاحظ أن الأزمتين المزدوجتين للتسلطية والاشتراكية لم تتركاً في ساحة المعركة إلا إيديولوجيا واحدة محتملة ذات طابع شمولي: هي الديمقراطية الليبرالية، عقيدة الحرية الفردية والسيادة الشعبية. فبعد مائتي سنة من إطلاقها للثورتين الأمريكية والفرنسية، برهنت مبادئ الحرية والمساواة ليس فقط على أنها دائمة، بل أيضاً أنها تستطيع أن تنبعث من جديد»⁽²⁾. وبعد مرور عقد من الزمن على نظرية فوكوياما في كتابه «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» يكتب مقالاً صدر عام 1999 عنوانه «عشر سنين على نهاية التاريخ» يطرح فيه أطروحته السابقة ويؤكد عليها، فيقول: «لا شيء مما طرأ على السياسة العالمية أو الاقتصاد الكوني مدة عشر سنوات الأخيرة يشكك - حسب نظري - في صحة ما انتهت إليه، ألا وهو أن الديمقراطية الليبرالية واقتصاد السوق المنقذان للوجود بالنسبة إلى المجتمعات الحديثة»⁽³⁾.

❖ إن فلسفة «نهاية التاريخ» تعتمد على فلسفة هيجل ومنظورها الجدلي، لهدف رئيسي هو الدفاع عن الديمقراطية الليبرالية من منطلق تقدير الذات والرغبة الشديدة في الاعتراف «التيموس» وتفضيل الحكم الديمقراطي والتحريك في النضال ضد كل أشكال الهيمنة والتسلط والاستعباد، والوقوف في وجه كل ما من شأنه يعيق تنفيذ الطموح صوب الديمقراطية الليبرالية، وإذا كانت الجدلية الهيجلية على مستوى الفكرة والمثال هي محرك التاريخ في اتجاه صياغة مكتملة تاريخية تتجاوز ما خلفته الحداثة من مساوئ في الفكر والممارسة، ولا يتحقق اكتمال العقل والروح السياسي والفلسفي والديني في التاريخ إلا بأسلوب ينتهي بالوعي إلى المطلق المتعين في الزمان وفي المكان والمتمثل في نظام الدولة المكتمل الانسجام، «ومن الواضح أن هيجل يصف بجلاء نموذج الدولة الصناعية الغربية الحديثة، وإن كان تأثره بالنموذج النابليوني معروف، ومن ثم كانت الانتقادات العديدة التي وجهت له باتهامه بالتنظير للدولة الكليانية... فلا يمكننا إلا أن نقر بأنه وفق في ضبط طبيعة الدولة الغربية الحديثة، التي وإن كانت أول دولة أعلنت حرية الإرادة مبدأً تتأسس عليه الحركة الاجتماعية والسياسية، فإنها في الآن نفسه أكثر دولة سلطوية في التاريخ، وأبعدها تدخلاً في قبولية أنماط المعرفة والسلوك الفردي والجماعي. إن ما يمكن القول دون تردد، إن هيجل كان أعمق نظراً وأكثر واقعية من تلميذه ماركس، الذي تنبأ بانتهاء التناقض الطبقي وانتفاء شكل الدولة، بينما اكتفى فيلسوف المثالية الجدلية بضبط حركة الوقائع، وقدمها في قالب نسقي تحكمه غائية العقل المطلق في مسار تجسده التاريخي»⁽⁴⁾. تأثر فوكوياما بفلسفة التاريخ لدى هيجل التي تتميز بالمتانة الفكرية وبالصلابة في المفاهيم، ولم تقف هذه القوة والمتانة في فلسفة التاريخ الهيجلية في وجه الانحراف بها في نهاية التاريخ نحو كونها مجرد إيديولوجيا

تتأسس على المراهنة على تطور العلم والتقنية وما ينجم عنهما من تغير لشكل البشرية ذاتها التي ستنتهي ويحل محلها نموذج جديد من الإنسان، هو حصيلته انتقاء تتوفر فيه ميزات التفوق والسمو والكفاءة المطلوبة في العصر الجديد»⁽⁷⁾. إن ارتباط التطورات الكشفية والتجريبية والتقنية في العلوم البيولوجية بسائر مشكلات الإنسان أفرز نزعات إيديولوجية عديدة قادها مفكرون وعلماء وساسة، كانت متفقة في عمومها على تحكّم العنصر العرقي الوراثي والجيني في مصادر وأساليب ومنتجات التقدم والتحضر، والأكثر مما تنتجها التطورات التقنية في البحوث العلمية البيولوجية الجينية في نتائج هذه البحوث والدراسات هو: «إنّ تقنيات التصرف في الجينات وما توفره من فرص وإمكانات تحسن النوع البشري، تحمل خطراً ليس على التوازنات والتواضعات المجتمعية والأخلاقية فحسب، وإنما تقود إلى ما هو أخطر، أي ظاهرة استعباد جديد للبشر، بتحويلهم إلى مادة قابلة للتكيف والتصرف، أي تحويل العلم من مشروع السيطرة على الطبيعة إلى مشروع السيطرة على الإنسان... أن اتجاه العولمة وإن أضحى حقيقة قائمة اقتصادياً وتقنياً لا سبيل لإنكارها، فإنّه لم يفض إلى مشروع ثقافي كوني، كما يتوهم ويتوَجسّس الكثيرون، وإنما يتأسس على انقسام عميق بين حركية الوقائع والأحداث وفضاء المعقولة والدلالة»⁽⁸⁾. «ومن دون النظر في فلسفة «هذا التوجه، فلا بد من الإشارة إلى أنّ الفكر الوضعي (كونت) قد ولّد إيديولوجيات جديدة أمنت بقدرة العلم على تحقيق شتى مطامح البشرية. ولا تختلف «الأيديولوجيا العلمية» الحالية التي يستند إليها فوكوياما عن هذا التصور، التي أصبحت تتحدد من جهة في نتائج الثورة العلمية، والتقنيات البيولوجية من جهة أخرى. إذ أن الثورة العلمية (المعلوماتية والاتصالية) هي التي ستفرض خيار العولمة، والتقنيات البيولوجية ستنشئ «الإنسان الأسمى الجديد»⁽⁹⁾. والحقيقة أن التقدم العلمي والتقني لا يتحرك من تلقاء ذاته، بل تحركه المنازع الإنسانية في الدين والأخلاق والإيديولوجيا وسائر المصالح، وبالتالي فمنازع الإنسان هي التي تحدد مسار العلم والتكنولوجيا في الحياة، إما نحو البناء والتعمير والتطور والازدهار، وإما نحو الدمار والخراب والظلم الاستبداد مثلما تحصده العولمة والنظام العالمي.

2 - العولمة الهيمنة والإختراق وثقافة الموت:

❖ إنّ التقنيات البيولوجية أو تقنيات الإعلام والاتصال والإشهار والمعلوماتية - تقنيات العولمة - على الرغم مما لها من أهمية ودور في صناعة التغيير، فإنّ التقنيات ليست في ذاتها عصباً رئيسياً ومركزاً أساسياً في صنع العولمة من دون المرتكزات القيمة للوجود الإنساني وهي الأيديولوجيا باعتبارها منظومة قيم تحدد منظور أكسيولوجي للحياة والوجود والعالم، المنظور الذي يعكس إيديولوجية العولمة وإستراتيجية العولمة، في إطار الاتجاه الشمولي الكوني في تطبيق الرأسمالية والديمقراطية التعددية والدفاع عن حقوق الإنسان وغيرها، وكل ذلك يغدو تزييفاً للحقائق وتكريساً للتناقض بين خطاب العولمة وواقعها ولثاماً يخفي علاقات القوة والهيمنة، «وإنه من المفارقات أنّه في الوقت الذي كان فوكوياما يعلن فيه عن انتصار الليبرالية

تحمي الدولة الديمقراطية الليبرالية الغربية الحديثة، لذا يعتبر العديد من المفكرين أطروحة نهاية التاريخ وما تنطوي عليه ليس بالأمر الجديد، فهي «لا تقدم رؤية جديدة، أو مفاتيح معقولة لحقبة انقضت فيها الدلالة عن الحدث، وإنما هي أثر لأزمة نظرية متفاقمة، تحيل في ما وراء مقصده - فوكوياما - إلى أزمة انسداد آفاق المعقولة التي تنبع في سياق الحداثة من محددات الإنسانية النظرية (الذات المفكرة) والمقاييس الموضوعية في وصف الظاهرة (العلم التجريبي) والتاريخانية الغائبة (مقولة التقدم). ولذا فإن «نهاية التاريخ» لا تنفصم عن موت الإنسان الذي أعلنه ميشال فوكو (أي تقوض مقولة الوعي في علاقة تمثله المباشر لموضوعه)، كما لا تنفصل عن «موت التجريبية الوضعية» التي أبرزت لمقاييس الإبيستيمولوجية زيفها وعقمها، ولا تنفصل كذلك عن انتكاسة التصورات التاريخانية التي قامت على أنقاضها المناهج الجديدة في كتابة التاريخ وقراءته»⁽⁵⁾.

❖ لم يأبه فوكوياما بالتحويلات المتسارعة في العالم في ظل العولمة والنظام العالمي وما سببته الأزمات على المستوى الاقتصادي والمالي، ليس في العالم المتخلف فحسب بل امتد تأثيرها السلبي إلى البلدان المتقدمة وعلى رأسها الولايات المتحدة، مما يطعن في مقولة نهاية التاريخ وهو الموقف الذي يرى البعض فيه الكثير من الطرافة، إنّ فوكوياما في مقالته الأخيرة التي نشرها بصحيفة «لوس أنجلوس تايمز» بادر بالتأكيد إلى «إنني لا أرى في ما حدث في عالم السياسة الدولية، وفي الاقتصاد العالمي خلال السنوات العشر الماضية أي شيء يتعارض حسب وجهة نظري مع الاستنتاج القائل إنّ الديمقراطية المتحررة والنظام الاقتصادي الذي يتحكم في السوق هما البديل الوحيد النافع للمجتمعات الحديثة». في هذا السياق، لا ينظر إلى الأزمات المالية التي عصفت باقتصاديات البلدان الآسيوية وروسيا، ولا تراجع الديمقراطية، وانتشار الحروب الأهلية في مناطق شتى من العالم، شواهد تفند نظريته، وإنما يرى أن اتجاه العولمة (بالمنظور الرأسمالي الغربي) قد تجذّر وتوطّد، لسببين أساسيين: هما من جهة غياب نموذج تنموي بديل، وآثار الثورة التقنية للمعلومات من جهة أخرى»⁽⁶⁾.

❖ يمثل التاريخ عند فوكوياما كغيره من المفكرين الغربيين المعاصرين إطار العقل والحركة في المجتمعات الغربية ومجتمع الولايات المتحدة، فيه يكون الزمن مليء بالإيجابية في الفكر والممارسة في حياة الناس، الإيجابية التي يصنعها العلم وتبنيها الثورة التقنية، باعتبار العلم هو محرك التاريخ وليس حركة متطلبات الاقتصاد والسياسة والاجتماع البشري، والثورة العلمية التكنولوجية في مجال البيولوجيات كفيّة بضمن التغير الكيفي للعنصر البشري، وهو ما لم تقدر عليه الإيديولوجيا الشيوعية، يستمد فوكوياما خلفيته «النظرية لنموذجه المعدل من «الأيديولوجية العلمية» ولذا لم يكن من المستغرب أن يستند إلى نتائج البيولوجيا التي تشهد تطورات مذهلة، منذ أن بدأت تطورات تقنيات التصرف في «الجينات»، ووصلت مرحلة الاستنساخ. لم يفقد فوكوياما نزعة التفاؤلية التي انبثت بدءاً على إيمانه باكتمال حركة التاريخ، وغدت

طبقا للنماذج التي تطرحها العلوم الطبيعية وخاصة الفيزياء والهندسة البشرية؟ إن فوكوياما بمراجعته لنفسه يعلن بوضوح عن الوجه الحقيقي للعولمة من وجهة نظر «النواة». وإذا كان اكتشاف أمريكا قد مثل مفاجأة للإنسان، فإن العالم يعيش هذه المفاجأة الهمجية منذ القرن السادس عشر، فالمغامر الغربي الباحث عن الذهب، لم ولن يتوقف حتى الآن، فذلك الأمريكي الخليط، الذي تكوّن من الهجرات من جميع العالم، بخلفيات ثقافية متعددة، عرقية وإثنية غير دائبة إلا تحت إلحاح القوة والرعب والخوف. وبسبب كل هذا الخليط من العنف والتدين والهمجية والمغامرة الشعور بعقدة الذنب، تحاول أمريكا أن تجعل العالم على نموذجها⁽¹³⁾.

«أصبحت العولمة تعني الأمركة بكل ما تحمله الكلمة من دلالة على هيمنة الولايات المتحدة في العالم حتى على البلدان الغربية، وعبر عن ظاهرة محاولة أمركة العالم بما في ذلك بلدان الغرب الأوربي المرحوم محمد عابد الجابري قائلا: «ومن الحقائق البديهية في عالم اليوم أن نجاح أي بلد من البلدان، النامية منها أو التي هي في طريق النمو، نجاحها في الحفاظ على الهوية والدفاع عن الخصوصية، مشروط أكثر من أي وقت مضى بمدى عمق عملية التحديث الجارية في هذا البلد، عملية الانخراط الواعي، النامي والمتجذر، في عصر العلم والتقانة. والوسيلة في كل ذلك واحدة: اعتماد الإمكانيات اللامحدودة التي توفرها العولمة نفسها، أعني الجوانب الإيجابية منها، وفي مقدمتها العلم والتقانة. وهذا ما نلمسه بوضوح في تخطيطات الدول الأوروبية التي يدق في كثير منها ناقوس خطر «الغزو الأمريكي» الإعلامي الثقالي الذي يتهدها، في لغتها وسلوك أبنائها وتصوراتهم الجمعية، والذي يوظف أرقى وسائل العلم والتقانة - ومنها الأقمار الصناعية - في اكتساح مختلف الحقول المعرفية والخصوصيات الثقافية»⁽¹⁴⁾.

«يعتقد البعض أن مقولة صدام الحضارات «لهنتغتون» تصطدم بمقولة نهاية التاريخ، في حين أن مصب المقولتين واحد هو التفوق والانتصار للحضارة الغربية انطلاقا من «التيמוש» أو من الصدام الحضاري، ووسائل وسبل الوصول إلى التفوق والانتصار هو التقدم العلمي والتكنولوجي والتفوق العسكري والديمقراطية الليبرالية، على أساس علاقة عدائية بين المركز والأطراف، يحددها استحواذ المركز على القوة والتعسف في استعمالها، من منطلق الحق للقوي أن يعمل ما يشاء وليس ملزما بالنظر إلى الضعيف لأن العالم في ظل العولمة لا مكان فيه للضعفاء، عالم تنافس الأقوياء في السباق العلمي والتكنولوجي وفي السباق العسكري وفي السباق التجاري والاقتصادي، أية جهة تملئ الأسواق العالمية بالسلع؟ وأية جهة تمتلك أكثر تقانة تطورا؟ وأية جهة تمتلك أقوى ترسانة عسكرية عدة وعددا؟ وأقوى ترسانة سلاح نووي وأكثرها تطورا؟ وانطلاقا من مقولة «صراع الحضارات» ومن الجانب الثقالي نجد أن الفكر الإنساني عامة لا يقبل قيم الثقافة الغربية التي كانت وراء تأسيس الحضارة الحديثة، إلا لكونها معبرا للمجتمع المدني ولرفاه المادي ولمشاركة فعلية وحقيقية للشعب في نظام الحكم وغيره، لكون هذه القيم

الديمقراطية على ماعداها من العقائد والمذاهب، سوى جيوب تاريخية باقية تمثلها الأصوليات الدينية والديكتاتوريات العسكرية، سيقضى عليها، كانت تحتل في المجتمع الأمريكي منازع أصولية سوف تنفجر لتصيب شظاياها مقولة «نهاية التاريخ» في الصميم. أي بينما يعلن «فوكوياما» نهاية التاريخ وحلول الدولة الديمقراطية الليبرالية، يعلن «هانتغتون» تصاعد الصراع بين الحضارات»⁽¹⁰⁾. أين محل مقولة نهاية التاريخ من صراع الإيديولوجيات وصراع الهويات الثقافية وصراع المصالح، هذا الصراع الذي لا نهاية له، ولا يتوقف عند مثالية أفلاطون وجمهوريةه ولا عند الفارابي في مدينته الفاضلة ولا عند هيجل في المملكة البروسية وفي شخص ملكها، ولا في الحالة الوضعية حسب النزعة الوضعية لدى «أوغست كونت»، ولا عند الإنسان الأخير الأسمى حسب فوكوياما مهما بلغت العلوم من تقدم والتقنيات من تطور، فالتاريخ تحركه الطبيعة البشرية بمكوناتها المتعددة والمتداخلة المتشابكة.

«إن التاريخ لا يمكن أن يتوقف طالما أن علم الطبيعة الحديث ليس له نهاية، بل إننا على أبواب تطورات علمية جديدة ستؤدي من حيث المضمون إلى القضاء على البشرية كما حالها اليوم»⁽¹¹⁾. ومقولة «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» من أبرز مرتكزاتها «الإيديولوجية العلمية»، ذلك بحسب التصنيف الثنائي الذي وضعه الفيلسوف «جورج كانغيلم» بالنسبة للإيديولوجية العلمية والنظرية العلمية، «فإذا كانت النظرية العلمية تتحدد إستيمولوجيا داخل الإنتاج العلمي نفسه، وتنتمي إليه من حيث حصيلة المجهود الافتراضي التجريبي الذي تقوم عليه الممارسة العلمية، فإن الإيديولوجية العلمية تنتمي إلى أفق التمثيلات والتصورات المجتمعية، أي مجال التخيل وحقل المعايير، وبهذه الدلالة فهي وإن واكبت العلم، إلا أنها تتسم بميزاته، ولا تكتسب خصائصه»⁽¹²⁾. وتبقى الإيديولوجية التي ارتكزت عليها مقولة «نهاية التاريخ» شبيهة إلى حد بعيد بالإيديولوجية الاشتراكية التي وعدت ببناء مجتمع الكمال في العدالة والمساواة الاجتماعية، ومحو التمييز والفقر والظلم والحيث الاجتماعي، فأثبت الزمن أنها من أسوأ الإيديولوجيات التي عرفها التاريخ، لم تورث سوى الاستبداد السياسي والفساد الاقتصادي والمالي ولم تنتج إلا الظلم والفقر لشعوبها التي غدت فريسة لهيمنة الديمقراطية الليبرالية والعولمة والأمركة المتصهينة المدعومة بالتقنية البيولوجية وتقنية الإعلام والاتصال والإشهار والتقنية الحربية النووية وغيرها، وهي سندات منظور «نهاية التاريخ» وأطروحة الإنسان الأسمى وما بعد البشر، كل هذا «يتوجه إلى العالم بإيديولوجيا في غاية الخطورة. أي ليس هناك سوى نموذج واحد يجب تطبيقه على كافة الجزئيات الصغيرة، و من ثم بناء نموذج مشابه لنموذج الأطراف - أطراف المركز. ويدعي فوكوياما أن المجتمع البشري سوف يبنى على أساس إلغاء الأفكار المسبقة، ولن يخضع لنشاطات الهندسة الاجتماعية. العولمة، وحدة العالم، ثورة المعلومات والاتصالات... منظومة متشابكة من المصطلحات التي تقوم على فكرة تطبيق نموذج الذرة على المجتمعات البشرية. ولكن أي مجتمعات بشرية؟ هل حان الوقت لتصحيح العالم ورسمه بناء على الأفكار المسبقة، وإنما

العملية الإنتاجية مجرد أشياء وسلع خاضعة لقانون السوق العمالية ولقانون العرض والطلب ولما يفرزه اقتصاد السوق، واختياره الحزبي والسياسي أو صوته الانتخابي هو مجرد شيء أو سلعة خاضعة للبيع والشراء، هو ما يحدث في بلدان العالم الثالث، إذ يتفاوض المرشحون في الانتخابات على سعر الصوت الذي تحدده درجة الفقر والفاقة، ومن وراء ذلك يُباع كل شيء حتى الكفر، فالفقر إذا نزل ضيفا على بلد ما قال الكفر خذني معك، فالرأسمالية تتعاطى مع الإنسان في ظل العولمة على أنه سلعة ومجرد شيء، ومادام تركزت الرأسمالية على التقانة المتطورة فهي كذلك تعتبر الإنسان كآلة المنتجة بل في المجتمعات الفقيرة الإنسان أقل شأنًا من الآلة، وهذه أزمة فجرتها العولمة التي تفرض النموذج السياسي والاقتصادي والثقافي الغربي والأمريكي على العالم أجمع، وهو نموذج طابعه مادي صناعي تقاني علماني، وإزاء تعاضم توجه العولمة نحو التسليع والشيئية، قامت الحركات المناهضة للعولمة لتعبر «عن غضبها إزاء هذا المشهد المعولم» حيث رفعت شعار: «إن العالم ليس بضاعة»، إذ لا يمكن اختزال العلاقات بين الشعوب في علاقات تجارية ومادية. إن هناك قضايا مصيرية جديرة بأن تُطرح على بساط الدرس، من ذلك أين موقع الإنسان من العولمة؟ هل تساهم العولمة في تحسين مستوى عيشه والزيادة في رفاهيته؟ ألا تشكل العولمة تهديدا للهوية الثقافية والخصوصيات الفكرية للشعوب؟ أين مكانة القيم والأخلاق في خارطة العولمة⁽¹⁷⁾. أمام هذه التساؤلات يتجه الوعي نحو التحرك للاحتجاج بسبب الشعور بالظلم المتزايد، خاصة أمام إيديولوجية تقوم على الشيئية والمادية والبضاعانية في التعامل مع بني البشر، دون مراعاة الكرامة الإنسانية، مما يولد مشاعر الكراهية والبغضاء التي عادة ما تنتهي بممارسة العنف بمختلف أشكاله في مواجهة الظلم والمهانة ووضعيتهم فيها العناية اللازمة بكل شيء إلا بالإنسان، «العولمة والنزعة التجارية سوف يعممان هذه الوضعيتهم ومعها يعممان الاستعداد للعنف، في نفس الوقت الذي فيه تتفجر حركات الغضب. هكذا يتراءى شبح رجال ونساء فائضين عن الحاجة - حاجة السوق - والذين يساهمون في الناتج الاجتماعي أقل مما يستفيدون منه فيصرون حملا ثقيلًا أكثر منهم موضع مساعدة. أولئك الذين في هذه الوضعيتهم، عندما لا يتوجهون إلى رد العنف الموجه إليهم، أو عندما لا يغرقون ببساطة في السلبية فإنهم يأخذون مصيرهم بين أيديهم. العالم الذي يسكنه فوكوياما ليس له مواقع أكثر من صورة جميلة على بطاقة، إنه لا يعكس، بأي حال من الأحوال، الوضع الذي يعيشه ملايين الناس، سواء في البلدان الصناعية أو في غيرها»⁽¹⁸⁾.

❖ أمام مخاطر العولمة تُنظم المؤتمرات وتُعقد اللقاءات الدولية تؤيد العولمة وتناصرها، يوظفها مفكرون ومثقفون وساسة من كل أنحاء العالم خاصة من الغرب الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية، «امتدح فوكوياما فضائل العولمة» (اللوموند 08-12-99)، لكن تفكيره يهمل بعض النتائج الكارثية للظاهرة، والتي في البلدان الأكثر تصنيعًا كما في البلدان المسماة العالم الثالث، تقوي الفروق بين المستفيدين منها وبين ضحاياها... يجب على فوكوياما أن يتذكر أن مثل هذه المواجهات صاحبت تقريبا

مشاركات إنسانية حضارية وتاريخية، أما انحراف أي ثقافة عن توجهات هذه القيم وسلبها إنسانيتها وكونيتها تحت أي شعار وأي مبرر، فإن ذلك يلقي معارضة ويصطدم بالإخفاق، مثلما حال الثقافة الغربية والأمريكية الحديثة والمعاصرة، وقبلها ثقافات كثيرة جاءت على نمطها في الهيمنة والاختراقية، فالمدينة وهي مطلب حضاري تاريخي يصطدم بأنظمة عنف إمبراطورية العولمة والأمركة، فالعصر هو العالمية المدنية ضد عولمة الخصوصيات ونظامها السياسي العنفي المتمثل في الإمبراطورية بما هي توظيف لمبدأ القوة العارية. إذ تمثل الإمبراطورية استبدادا طاغيا، مستمدا من مخزون الحضارة اللاشعوري بما فيه من عنف الموروث الانثروبولوجي (حرب الكل ضد الكل)، موجها ضد حتمية المدينة، لذا فإن كلا من المدينة والإمبراطورية يتنازعان جناحي القوة. المدينة تتعاطى القوة من حيث إنها امتياز الاقتدار الإنساني، بينما لا يناسب الإمبراطورية لقيامها سوى احتكار طاقة العنف وصراع الحضارات الذي تسعى لحله لصالحها وحدها، كما تغدو هي أقوى قوى الحضارات الأخرى المنافسة والمهشمة⁽¹⁵⁾. ومن جانب آخر فإن الصراع الحضاري ليس دائما تتحكم فيه موازين قوة العنف كما يرى البعض، بل هو مشدود لفعالية غير فعالية العنف، هي فعالية «الاقتدار الإنساني الذي يبني لكل حضارة شخصيتها ويميزها عن سواها. ومن جدلية العلاقة بين العنف والاقتدار تتشكل صيغة الشخصية المفهومية للحضارة، التي تتعدى حدود الأمم وهوياتها الذاتية المتدرجة تحت دائرتها. ما تعنيه «نهاية التاريخ»، هو انتصار الاقتدار الإنساني على تاريخه الانثروبولوجي- أي العنف والعنف المضاد- والحضارة التي تبلغ هذه النهاية هي المرشحة وحدها لحمل وتحمل عبء المدينة، وذلك بالافتتاح على الشرط الإنساني الذي ساهمت حضارته، كل منها حسب هويتها ومشروعها الثقافي، في تجارب الإعداد للسلام العالمي المستديم... فالعصر الراهن حقق تميزه عن عصور التاريخ السابقة، بإنجاز التواصل بين مختلف شؤون الروابط الإنسانية، إنه يفترض قابلية المشاركة من الجميع في صنع المدينة العاكسة لافتتاح الإنسان، ما فوق مبدأ الهويات المتناحرة، ما بين أقطابه المستقيمة والمستضعفة. والسؤال الذي ينبغي طرحه هو: هل أن عودة «ثقافة الموت» مع انبعاث الإمبراطورية سيجعل العنف وسيلة ليؤكد الإنسان المضطهد إنسانيته ضد القمع والهيمنة الذي يواجهها»⁽¹⁶⁾.

3 - منطق العولمة وأكسيوجيا الإنسان:

❖ إن منطق مقولة «نهاية التاريخ» أو مقولة «صدام الحضارات» أو مقولة «العصور الوسطى الجديدة» وغيرها من المقولات التي تلنقي في فكرة واحدة، هي أن العولمة ومعها الأمركة ضرورة حتمية ومكسب حضاري وظاهرة تاريخية طبيعية، ارتبطت أساسا بالنماء الاقتصادي والتطور العلمي والتكنولوجي والديمقراطية الليبرالية، هذا المنطق يهدف إلى تشييع وتسليع كل شيء في العالم، بحيث يصبح الإنسان يُنظر إليه على أنه مجرد سلعة أو شيء في سوق العمل وفي أتون الإنتاج وفي سوق السياسة، وجوده الاجتماعي والثقافي والفكري والأخلاقي والديني أشياء وسلع، وجهده المبذول والمسخر في

الأعضاء، والتي شلت حركتها فيما هو أساسي، يمكننا التحقق قريبا أن العديد منها، وليس أقل من ذلك. لم تنو أبدا معارضة منطق العولمة. أرض أوروبا لم تعد إلا أداة العولمة وليس السد الذي كانت تنوي مواجهتها به، أرض أوروبا لم تعد تفعل شيئا غير نزع سلاح الدول، ولا تقدم بديلا عن الإرادة الوطنية. إنها مهووسة فقط بهذه الأيديولوجيا، أيديولوجيا تجاوز الوطنية، التي تظهر في هستيريا عصرنا، العولمة التجارية مثل الأممية الحمراء والبنية-الفاشية-والتي كانت أساسا، نحن ننسى هذا أحيانا، أيديولوجيات متجاوزة للوطنيات. إذا كانت هناك فكرة، فكرة واحدة فقط، والتي عبرت عصرنا من أقصاه إلى أقصاه، ووصلت اليوم إلى منتهاها، فهي فكرة «دريو لاروشيل»، التي أطلقها عام 1922، كصرخة انتصار في كتابه «مقاس فرنسا»: «زمن الوطنيات انتهى»، هذه الفكرة ظلت قائمة متعددة الأشكال، جمعت في يوتوبيا مشتركة الأيديولوجيات الكبرى الثلاث في عصرنا: الشيوعية، الفاشية، والعولمة التجارية»⁽²¹⁾. إن خصوم العولمة تعاضمت شوكتهم وتقوى عودهم داخل الولايات المتحدة الأمريكية، عمال وطلبة ينددون بالأوضاع السيئة التي أفرزتها العولمة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والأمني، ويطالبون بتطبيق ميثاق حقوق الإنسان وبعداة عالمية أكبر وأوسع، «لقد بدأ المواطن الأمريكي يعي أن مصيره ربما لن يكون أفضل من مصير بلدان العالم الثالث، عندما تتخلى عنه شركاتها، ويهجره الرأسمال بحثا عن ربح أكبر وتكاليف أقل، هربا من الديمقراطية إلى حيث لا ديمقراطية. دون أن يعني هذا ارتفاع مستوى الحياة في بلدان المهجر الرأسمالي، ولا انتشار الديمقراطية المزعوم»⁽²²⁾. يظهر مما سبق أن العولمة في أزمة، لم تمس الضعفاء والفقراء في العالم وحدهم، بل امتدت لتمس المواطن والشركات الاقتصادية والمؤسسات المالية في البلدان المتقدمة وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، أزمة العولمة أثبتت أن البيان النظري والسياسي والإيديولوجي للعولمة - نهاية التاريخ والإنسان الأخير- قد جانب الحقيقة والواقع، ذلك للتناقض المفوض بين خطاب البيان وخطاب العولمة وخطاب الأمركة وبين واقع المجتمعات في مختلف أنحاء العالم، المجتمعات التي تعاني قمع العولمة، العولمة التي تعمل على سحق شعوب الأطراف وتدميرها من كافة الجوانب، وتحرص على تسخير كل إمكانيات الشعوب المقهورة ذاتها لانصهارها في عولمة متوحشة شرسة لا مكان في ظلها للضعفاء.

خاتمة:

❖ إن التاريخ لم ينته كما تذهب أطروحة نهاية التاريخ وخاتم البشر، ولا الثقافات انصهرت في سياق الصدام الحضاري، فالتاريخ في حراك بدأب وديدان، والثقافات شامخة لم تهتز في وجه رياح العولمة والأمركة، وسلطة المركز لم تحل محل الدولة الوطنية والقومية المستقلة في الأطراف، وحقوق الإنسان التي ينادي بها الآخر في العالم هي جزء من أعمال التحرر والتنمية، ومن غايات الإسلام ومراميه قبل العولمة ومنذ أكثر من أربعة عشر قرنا، والتنوع الطائفي والثقافي والمذهبي من أشكال التعددية تعيش في إطار المساواة فيما للمواطنين وما

كل الإصلاحات الديمقراطية الكبرى، من تأسيس النقابات، والحصول على الحقوق المدنية، وتوسيع حق الانتخاب إلى المساواة أمام القانون. في الحقيقة يحتاج الأمر إلى جرأة كبيرة- ربما ساذجة- لكي نصدق أنه بدون هذه المواجهات الاحتجاجية، تنتهي السلطوية بأن تغيب، وحقوق الإنسان سوف تحترم، وإن اهتماما كافيا سوف يوجه لسياسة في صالح المرأة والبيئة. المشكلة هي أنه مع العولمة هناك منطلقا آخر ليس أبدا متفقا مع ما يقدمه لنا فوكوياما، بالنسبة لفوكوياما، العولمة قادت إلى توافق تدريجي للإحساسات الأخلاقية، وأنها سوف تتيح عاجلا أم آجلا، ملأ الفراغ، وردم هوة الاختلافات في العدالة والحقوق، إن ما يجعل هذا التوافق ممكنا هو وعود وفي نفس الوقت الأمل في نمو بلا حدود وبلا نهاية. الرأسمالية ربما كانت النظام، وإلى هذا اليوم، النظام الوحيد الذي أتاح مثل هذا النمو. لكن الديمقراطية، باعتبارها نظاما سياسيا، لم تواجه حقيقة أبدا، ولم تعترف بطبيعة مسؤولياتها نحو أولئك الذين هم آليات النمو تعاقبهم أكثر»⁽¹⁹⁾.

❖ كثر خصوم العولمة والأمركة من المفكرين والسياسيين والمثقفين ومن العوام في الغرب الأوروبي ومن الأمريكيين أنفسهم، وكثرت مع ذلك المظاهرات الاحتجاجية على إفرازات العولمة في جميع مجالات الحياة، هذا «شارل باسكوا» وزير سابق ونائب في البرلمان الأوروبي ورئيس التجمع من أجل فرنسا- من اللوموند 08-12-99 - يقول في وصف المظاهرات الحاشدة المناهضة للاجتماع الوزاري للمنظمة العالمية للتجارة بالمدينة الأمريكية «سياتل» عام 1999، ومعبرا عن موقفه من الموضوع: «لكن المظاهرات العارمة في سياتل، والتي لا مثيل لها منذ حرب الفيتنام، وأكثر من هذا التصميم القوي، عند كل الوفود، على رفض العجلة الطاحنة المتمثلة في جعل العالم سلعة تجارية، النافية للشعوب، وللثقافات وللمصالح الوطنية، والذي أرغم المنظمين على التخلي عن بدء دورة جديدة من التدمير. أمام تراكم الانسدادات بين الحكومات، وفي معمرة الاضطرابات والقنابل المسيلة للدموغ، لم يعد لائقا، ولا ممكنا، الزعم بأن الهدف المطلوب من مؤتمر «سياتل» إقامة نظام عالمي جديد. البرهان، هكذا قدم، على أن العولمة ليست ظاهرة نزلت من السماء، وأنها لا هي غير ممكن تفاديها، ولا هي غير ممكن تراجعها، لقد ثبت أنها ليست إلا شكلا من الإيديولوجية الليبرالية المتطرفة، والتي تقوم على فرضية عجز الدول، والتي يراد فرضها على الشعوب باعتبارها أمرا واقعا... لم يحتج الأمر إلا إلى بضع دقائق، لكي نلاحظ أن المفوض الأوروبي، مع أنه فرنسي الجنسية، قد قرر التحدث بالإنجليزية، أعني لغة السيد، دهشة الشعوب الفرنكفونية كانت عظيمة، بقدر ما أن اللغة الفرنسية هي إحدى لغات ثلاث معتمدة للعمل في المنطقة العالمية للتجارة. بالطبع قادتنا لم يحتجوا»⁽²⁰⁾. وسار في خط «شارل باسكوا» كل من «وليام أبيتبول» و«بول ماري كوتو» وهما برلمانيان في البرلمان الأوروبي، مجموعة الاتحاد من أجل أوروبا الشعوب- عن اللوموند 30-09-1999 فجاء في مقالهما بعنوان «السيادة ضد العولمة» حول أوروبا والعولمة: «لقد اعتقد البعض أن أوروبا سوف توفر أطر ووسائل هذا الرفض، لكن العولمة كانت أسرع منها، مضافا إلى ذلك خلافات الدول

- يلزمهم من حقوق في وطنهم. من التحديات الفعلية الواجب على الدولة الوطنية التاريخية التراثية - دول العالم العربي والإسلامي - إدراكها نضج الوعي التاريخي الراهن الخاص واكتماله وربطه بالماضي، واستيعاب مرحلة الإبداع الأولى في عز الحضارة الإسلامية ووعي مرحلة محاولات النهوض الحضاري في العصر الحديث وإدراك مرحلة التنمية الراهنة والتحرر الجاري في إطار وطني وإقليمي، إطار يتم فيه الإبداع وتبلور المفاهيم والتصورات والرؤى والمناهج والغايات الخاصة من دون السقوط في أحضان العولمة والأمركة واعتبارهما ضرورة تاريخية كما يروج لذلك حماة الكونية ودعاة الكوكبية. إن وصول عالم الأطراف إلى فرض الاستقطاب في معارك العولمة يستدعي «متولوجات» عميقة وإعادة بناء الذات بالحوار دوماً وبالنقد الذاتي وحشد القوى وتجميعها بعيداً عن التطرف ومنطق الإقصاء، ففي العالم العربي والإسلامي يحتاج الأمر إلى التوحد في جبهة تأخذ على عاتقها العمل من أجل تحقيق المشروع القومي العربي الإسلامي، المشروع الذي تنتفي فيه الاختلافات المدمرة لكل أمل في التوحد والنهوض والتحضر، مشروع يتجسد في الميدان، يحافظ على الذات ويصنع التنمية ويحقق الوحدة ويضمن الديمقراطية والعدالة، ويحرر الأرض - أرض فلسطين - من الاحتلال، وهذا من شأنه يقضي على الهروب من الوطن داخل الوطن بالحراك في مسار اليأس والقنوط واللام أمل ونتائج ذلك وخيمة، كما يمنع الفرار نحو الخارج المفضي إلى الموت المحتم في الطريق أو خدمة العولمة.
- الهوامش:**
- 1 - نقلا عن فيصل عباس، العولمة والعنف المعاصر، جدلية الحق والقوة، ص 290.
 - 2 - فوكوياما: نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ترجمة فؤاد شاهين، ص 68.
 - 3 - فوكوياما: مقال «عشر سنين على نهاية التاريخ، ترجمة المنصف الشنوني، الثقافة العالمية، المجلس الوطني، الكويت، العدد 98، سنة 2000.
- نقلا عن فيصل عباس، العولمة
- 4 - السيد ولد أباه: اتجاهات العولمة، ص 150.
 - 5 - المرجع السابق: ص 151. والعنف المعاصر، جدلية الحق والقوة، ص 293.
 - 6 - نقلا عن السيد ولد أباه، اتجاهات العولمة، ص 152.
 - 7 - فيصل عباس: العولمة والعنف المعاصر جدلية الحق والقوة، ص 292.
 - 8 - السيد ولد أباه: اتجاهات العولمة، ص 158-159.
 - 9 - فيصل عباس: العولمة والعنف المعاصر جدلية الحق والقوة، ص 293.
 - 10 - المرجع السابق: ص 296.
 - 11 - السيد ولد أباه: اتجاهات العولمة، ص 152.
 - 12 - المرجع السابق: ص 153.
 - 13 - فيصل عباس: العولمة والعنف المعاصر جدلية الحق والقوة، ص 299-300.
 - 14 - محمد عابد الجابري: العرب والعولمة، ص 307.
 - 15 - فيصل عباس: العولمة والعنف المعاصر جدلية الحق والقوة، ص 309.
 - 16 - نقلا عن فيصل عباس، العولمة والعنف المعاصر جدلية الحق والقوة، ص 309-320.
 - 17 - دافيد آبتن، نقلا عن رجب بودبوس، العولمة بين الأنصار والخصوم، ص 34-35.
 - 18 - دافيد آبتن: أستاذ العلوم السياسية المقارنة والتنمية الاجتماعية في جامعة يال.
 - 19 - دافيد آبتن، نقلا عن رجب بودبوس، العولمة بين الأنصار والخصوم، ص 31-32.
 - 20 - شارل باسكو، نقلا عن رجب بودبوس، العولمة بين الأنصار والخصوم، ص 37-38.
 - 21 - وليام إيتبول، نقلا عن رجب بودبوس، العولمة بين الأنصار والخصوم، ص 41-42.
 - 22 - رجب بودبوس: العولمة بين الأنصار والخصوم، ص 47 - 48.